المحاضرة الرابعة المبحث الثاني

الفكر السياسي اليوناني قبل أفلاطون

أولا :الفكر السياسي عند السفسطائيين:

انتهت حروب البيلوبونيز ، بعد أن استمرت ثلاثين عاما ، بانتصار إسبرطة وهزيمة أثينا النظام والمجتمع والأفكار .ولأن الانتصارات توحي بصواب أفكار المنتصرين ونجاح أنظمتهم وإن لم تكن كذلك ، مثلما توحي الهزائم بخطا انكار المهزومين وفشل أنظمتهم وإن كانت خلاف ذلك ، فقد كان منطقية وطبيعية أن تهتز ثوابت الإغريق القيمية في ذلك العصر ، فردية ومجتمعة ، وأن يبدءوا بإعادة النظر فيها وتقويم جدواها بعد أن تسرب الشك إلى نفوسهم بشأنها واكتشفوا قصورها وعجزها . فكان لا بد إذا من البحث في عوامل الانتصار وأسبابه والدعوة إلى تحقيقه وإن تطلب ذلك تضحية المهزومين بأفكارهم وقيمهم ومثلهم العليا ، ولا بد لمثل هذا البحث من باحثين يتحملون أعباءه ومسؤولياته .وكان أول هؤلاء الباحثين مجموعة من محترفي مهنة التعليم ممن أخذوا على عاتقهم مهمة تعليم الجدل والخطابة للشباب بوصفهما أسهل الطرق وأكثرها قدرة على تحقيق النجاح السياسي والتأثير في الجماهير وكسبها ، وقد حمل هؤلاء لقب السفسطائي "وتعني "المعلم الجوال .ولأن هؤلاء السفسطائيين كانوا في الأصل من مدن مختلفة لكل منها نظامها وقيمها وأفكارها ، ولأنهم نهلوا من مصادر معرفية متعددة ، واستندوا إلى مرجعيات حضارية متنوعة .فقد تميزوا بثقافة واسعة ذات خصائص اجتماعية ونفسية وتاريخية ونقدية متشككة دفعت بالنشاط الفكري نحو وجهة جديدة بعيدة عن توجهاته السالفة المنصبة على تأمل الإلهيات و موضوعات العلم الطبيعي والبحث فيها ، فوقائع الحياة بعد انتهاء الحرب دفعت إلى الاهتمام بالإنسان وقضاياه ومشكلات حياته ومصالحة الفردية بدلا من المدينة ونظامها ووحدتها .وتولى السفسطائيون القيام بهذه المهمة عندما اتخذوا من الإنسان الفرد محورا لاهتمامهم وجعلوا نجاحه وسعادته موضوع انشغالهم ، فكان همهم تعليم تلامذتهم الانشغال بتفاصيل حياتهم العملية ومشكلاتها اليومية والطرق المؤكدة للنجاح السريع فيها وصولا إلى ما اعتقدوا أنه السعادة الإنسانية الحقة ، فكان انشغالهم بما هو نافع ومفيد لا بما هو حقيقي وصحيح هكذا كان ظهور المدرسة السفسطائية استجابة فكرية للحاجات العملية للمجتمع الإغريقي عموما

والأثيني خصوصا في ضوء أحداث القرن الخامس ق .م وتحولاته الكبرى .جسدت تلك الحاجات العملية وأفصحت عنها طبيعة النظام الديمقراطي الأثيني وآلياته التي تسمح لكل أثيني حر ذكر بالغ يتمتع بصفة المواطنة بالوصول إلى مواقع السلطة والمسؤولية لمجرد صدفة القرعة لا بالجدارة أو الأهلية ونظامه القضائي المفتقر إلى وجود المحامين المتخصصين والمحترفين .فتأكدت بذلك الحاجة لتعلم المنطق والجدل وقواعد الخطابة وأساليب الإقناع وكسب تأييد المستمعين ، يتساوى في ذلك الطامحون إلى النجاح السياسي من الأرستقراطيين أو العامة والمتخاصمون أمام المحاكم لحاجتهم إليها للدفاع عن أنفسهم ودحض حجج خصومهم وكسب قضاياهم لا فرق في ذلك بين أن يكونوا ظالمين أو مظلومين فالمهم هو أن تكون النتائج في النهاية لصالحهم .ولا ينسى هنا أثر الاحتكاك بالشعوب الأخرى وحضاراتها في طرح العقل الإغريقي لمزيد من التساؤلات حول صحة القيم السائدة في المجتمع المجتمعات الإغريقية ومعتقداتها وأفكارها التي أصبحت موضع شك قاد إلى القول بنسبينها وعدم ثباتها .لقد كانت أبرز خصائص السفسطائيين المعلمين الجوالين أنهم أول من احترف هذه المهنة في بلاد الإغريق ، وأن تعليمهم انطوى على غايات عملية أساسها تحقيق النجاح السياسي بتعليم طلبتهم سبل الإقناع والإغراء والإفحام ورفع كفاءاتهم ليكونوا ساسة المستقبل الناجحين مما جعل من هذا الأسلوب التعليمي صدمة للمجتمع وقيمة الدينية والأخلاقية والسياسية .

وقد كان السفسطائيون في الغالب يتمتعون بمعارف تقنية واسعة ويحيطون بالعديد من الفنون العملية والصناعات التطبيقية النافعة التي آمنوا بضرورتها للحياة الاجتماعية ابتداء من أكثر المهن وضاعة وانتهاء بأهم الفنون والصناعات وأكثرها خطرة "السياسة التي يتباهى السفسطائيون بتعليم تلاميذهم أسسها ومبادئ النجاح فيها .ولعل أبرز ما جاء به هؤلاء المعلمون الجوالون وكان اساسا للكثير من أفكارهم ونظرياتهم اللاحقة هو النزعة الإنسانية)الفردية التي تجعل من الإنسان مقياس كل شيء ، وندافع عن حق الإنسان الفرد في البحث عن سعادته والدفاع عن مصالحه دون الخضوع لأي قيد خارجي دينية كان أو أخلاقية او قانونية ، وترفض كل ما هو غير طبيعي كالقوانين الوضعية التي رأى السفسطائيون أنها ابتكار بشري اصطناعي ونعسفي يتعارض مع روح الطبيعة ويقف معها على طرفي نقيض ، والسلطة السياسية التي عذوها مجرد وسيلة يستخدمها بعض الناس لإشباع شهواتهم وتحقيق مطامعهم الخاصة على حساب الآخرين ومصالحهم .وكان من أشهر هؤلاء السفسطائيين :

1. أنتيفون اعتقد ان القانون مجرد اتفاق أو عرف سائد يتعارض مع طبيعة الأشياء التي تؤكد حرص الإنسان على تحقيق مصلحته أولا وأخيرا ، وأن خضوع الفرد للقانون وأحكامه مرجعه خوفه من العقاب أو الفضيحة ، فإن كان آمنا منهما ، فإنه سيخالف تلك الأحكام من أجل مصالحه بشرط ألا يعرض نفسه للاتهام بجريمة الخروج على القانون .ولأنه لم يكن يؤمن بالقوانين ، فقد عارض مفهومها للعدالة واعتقد أن ما هو عادل من وجهة نظر القانون قد يكون ظالمة من وجهة نظر الطبيعة ، لذلك رأى عدم جدوى المفهوم القانوني للعدالة لأنه لا يمنع وقوع الضرر ، وإن وقع الضرر لا يستطيع إصلاحه ، ومن يطيع القوانين ويخضع لعدالتها على حساب مصلحته سيخسر ولن يربح شيئا .ويخضع مفهوم الطبيعة في اعتقاده للفرد الذي يحدد هذا المفهوم ويتحكم فيه ، لذلك ينصب مفهوم الطبيعة عنده على الإنسان الفرد وحقه في تأمين مصلحته الخاصة وضمانها والدفاع عنها حتى وإن تعارضت مع القيم والأخلاق والأعراف والقوانين السائدة .لذلك كان يعتقد بوجود نوعين من القوانين :القانون الوضعي والقانون الطبيعي .القانون الوضعي القانون الطبيعي لا مفر منه نخلقه الاتفاقات الإنسانية الإرادية تخلقه الطبيعة بعيدة عن الإرادة الإنسانية الا بصح احترامه ، لكن على المرء يجب احترامه والخضوع لأحكامه .التظاهر بذلك تجنبا للقصاص ، وأن يحاول خرقه والخروج عنه كلما كان ذلك ممكنا .وانتهت أفكار هذه على المستوى السياسي إلى التأكيد على أن القوة هي أساس الحصول على السلطة وممارستها ، وأن العدالة هي ما يحقق مصالح الأقوياء ، إذ ليس اللعدالة قواعد ثابتة ومحددة يمكن تحقيقها وإخضاع الناس لها ، والمصلحة الشخصية هي المحرك الأول للسلوك الإنساني ، وبذلك يكون الحق السياسي بيد الأنوى ، فالقوي هو العادل وعليه تجنب الخضوع للقوانين لأنها عقبات غير طبيعية تقيد الرغبات الطبيعية للأقوياء ، والأديان هي الأخرى قيود غير طبيعية على الإنسان ، فالآلهة غير موجودة بالنسبة لمن لا يؤمن بها وموجودة بالنسبة لمن يؤمن بها ، أما "أنتبفون نفسه فإنه كما يقول لا يعرف شيئا عن حقيقة الآلهة الغموض الموضوع وقصر الحياة وعدم كفايتها لبحث هذا الأمر العويم ، لكنه أعلن استعداده للتحدث عن الآلهة استجابة للتقاليد السائدة فحسب .

2. بروتاجوراس جعل من الإنسان مقياس كل شيء ، ورأى فيه الأصل في كيان دولة – المدينة ومحور نظامها السياسي بل وحياتها السياسية أيضا ، وتنشأ الدولة عنده عن حاجة البشر لتنظيم

حياتهم بشكل آمن ومستقر ، إذ كانت الأحوال المادية للبشر قاصرة بقصور قدراتهم وخبراتهم ومعارفهم مما أوقع بينهم الفرقة والصراع ، عندها أرسل كبير الآلهة)زيوس (رسوله الإله)هرمس إلى البشر ليهب لهم فضيلتي العدالة القانون والشرف /الحياء لتكونا أساس النظام في مجتمعهم (الجديد ، نظام دولة المدنية ، والرادع لسلوك الإنسان والمنظم له .لذلك فإن العدالة والشرف فضائل طبيعية مصدرها الهبات الإلهية لتأسيس للحياة الاجتماعية وضمان استمرارها ، والتخلي عنهما يعرض دولة المدينة إلى الفوضى والاضطراب ، لذلك يجب القضاء على كل من يخالفهما ضمانا لمصلحة دولة المدينة .واعتقد بروتاجوراس أن هدف الفكر وغايته هو حسن التمييز وليس الحصول على الحكمة أو البحث عن الحقيقة ، ولذلك فإن هدف التعليم هو أن يحسن الرجل إدارة شؤون منزله ويكتسب الأهلية للمشاركة في إدارة شؤون الدولة بجدارة ، أي أن هدف التعليم هو تزويد الأفراد بمعارف وخبرات تجعلهم مواطنين صالحين .ويتفق بروتاجوراس مع أنتيفون في مراعاة العامل الروحي القيمي وأخذه بنظر الاعتبار وإدراك ضرورة إدخاله على النزعة المادية العملية لدى السفسطائيين لتخفيفها ، فقد جعل العدالة والشرف فضائل وهبتها الآلهة للبشر رغم أنه أوضح أن الإنسان الا بستطيع معرفة شيء عن الآلهة ، وكان موقف هذين المفكرين منحفظة إزاء الروح الفردية المطلقة التي سادت أفكار السفسطائيين ، وبشأن العلاقة بين الفرد وسلطة النظام الاجتماعي المتمثلة في القوانين والقيم والأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع .في 3 .كالبكبز كان من الداعين إلى الفردية المطلقة والقائلين بتعارض الطبيعة ، القوانين وتقاطعها معها كليا حتى أنه أعلن رفضه للقوانين ، ودعا إلى عدم الخضوع الأحكامها مستند ذلك إلى :

1- اعتقاده بأن القوانين هي مجرد عقود أو اتفاقات بصنعها الضعفاء ليسلبوا باسمها حقوق الأقوياء التي هي في رأيه حقوق عادلة لأنهم يستمدونها من قوتهم التي منحتها لهم الطبيعة فأهلتهم بها للحصول على السعادة .

2- اعتقاده بأن القوانين تخلق أوضاعا أخلاقية لا تناسب إلا العبيد ، فهي وسيلة الضعفاء لخداع الأقوياء ومنعهم من الانتفاع بما تمنحه لهم الطبيعة من قدرات تؤهلهم لتحقيق مصالحهم ، لذلك فقد رأى أن بمقدور الرجل القوي الذي لا يخضع أن يجعل من إرادته حقيقة واقعة ومؤكدة لأن الحق ،

عنده ، هو القوة والقوة هي الحق .للقوانين 4 .تراسيماخوس آمن بفردية مطلقة وأنكر وجود شيء أسمه حق طبيعي ، أما الحق عنده فهو ما تسنه وتنفذه أقوى سلطة في الدولة ووفقا لما تراه متناسباً لمصالحها .فمن العدل ، كما راى ثراسيماخوس ، أن ينال الأقوياء اكثر من الضعفاء وأن يتمتع أصحاب السلطة بكل المكاسب التي ترضي مطالبهم وشهواتهم لقاء إدارتهم لشؤون الحكم .هكذا كانت الأفكار السياسية السفسطائية في موقفها من مشكلة العلاقة بين الفرد والسلطة وآليات التنظيم والردع الاجتماعيين تراوح بين الاعتدال والتطرف مع تبنيها لمبدأ "الحق هو القوة والقوة هي الحق لتجعل من السيادة حقا بحوزه الأقوياء سواء استند ذلك إلى فكرة الحقوق الطبيعية أو فكرة القوة المطلقة .واعتقدوا أن الدولة نتاج للعرف بينما الفرد نتاج الطبيعة ، وهو كائن مستقل له ذاتيته التي لا يمكن التخلي عنها أو القبول بتذويبها في النظام السياسي ولصالحه .وأكدت أفكارهم أيضا على نسبية الحقائق والأفكار وعدم إطلاقها أو ثباتها ، وجعلت قيمة الأشياء والأفكار مرتبطة بفوائدها العملية التطبيقية ، وأعلنت المساواة الطبيعية بين البشر ، ورات في التمايز ظاهرة عرفية اصطناعية وبذلك زعزعت أفكار السفسطائيين أسس نظام دولة المدينة وأضعفت قوة قوانينها وأعرافها وتقاليدها . وشككت في كل تراث إنساني عندما وضعنه موضع التضاد والتعارض مع الطبيعة ، فأثرت بشكل ، أو بآخر في الفكر السياسي اليوناني القديم وحددت مواقفه واتجاهاته وصاغت مساراته القادمة في جوانب مهمة وأساسية منها .أسباب نشأة النزعة السفسطائية

لقد اجتهد الفلاسفة والمؤرخون في تحديد تلك الأسباب التي دعت السفسطائيون إلى القول بالشك المطلق ,ويمكن تقسيمها إلى قسمين :

القسم الأول :الأسباب الخاصة :والمقصود بهذه الأسباب هي التي تتعلق بطبيعة حال الفلاسفة العلمي والمجتمعي في عصرهم بوجه خاص ,وعموم المجتمع بوجه عام ,ويمكن ذكر مجملها فيما يلي :

1 – الأخطاء التي يقع فيها الناس ,ومنها أخطاء الحواس ,وأخطاء الوجدان ,في اليقظة ,والمنام وأخطاء الذاكرة ,وأخطاء الاستدلال ,وتخيلات المجانين .فالبرج المربع يبدو لنا عن بعد مستديرا , فإذا اقتربنا منه شاهدناه مربعا ,والمجداف يبدو منكسرا في الماء فإذا أخرجناه كان كاملا !ونحن ,

نعتقد بحقيقة ما يتراءى لنا من الصور في الأحلام ، فلم لا تكون اليقظة وهما كالحلم ؟ ولما كان التصديق مصاحبا لتصوراتنا جميعا ,فبأية علامة نميز الحق من الباطل ؟

2 – اختلاف الناس في إحساساتهم وآرائهم وعقائدهم وأخلاقهم وعاداتهم ,حتى ليمتنع التوفيق بينها على من يحاوله ,وهذا الاختلاف دليل على عدم وجود حقيقة بالذات وعدم استطاعتنا الوصول إليها إن وجدت .

3 – امتناع البرهان التام :فإن البرهنة على قضية ما ,تستلزم الاستناد على قضية أخرى ,وهذه تستلزم الاستناد على قضية ثالثة ,وهكذا إلى ما لا نهاية !وهذا يستلزم التسلسل دون الوقوف عند حد معين وإرساء العلم اليقيني على أساس معتبر.

4 – امتناع التدليل على صدق العقل ,وهذا التدليل واجب ,فإن الوثوق بالعقل قبل الاستيثاق من إمكان الوثوق خلف ,ولا نستوثق من هذا الإمكان إلا بالعقل ,ولا يصح أن يكون العقل حكما فيصدقه هو أو نقع في الدور.

القسم الثاني :الأسباب العامة :هناك جملة من الأسباب العامة التي أدت في ظاهرها إلى نشأة النزعة السفسطائية لدى فلاسفة الشك ,وهي تتعلق بطبيعة حال العالم إبان ظهور هذه الفلسفة ويمكن ذكرها موجزة فيما يلي :

من أسباب ظهور السفسطائيين أيضا هي أنها نشأت في موجة تباين فكري وعقدي وعقلي بين أطياف المجتمع اليوناني ,حيث كان هناك تصادم بين المؤمنين بالأساطير والعقائد اليونانية وبين قواد موجة الشك والكفر بتلك الأساطير ,فلم يلبث الناس أن نبذوا آلهتهم القديمة وراء ظهورهم , لأنهم شعروا بعد أن استنارت عقولهم أن تلك الآلهة لم تكن جديرة بالعبادة والتقديس ,وما ظنك بالهة نسبت إليها كل صنوف النقص والفجور كما صورها شعراء اليونان ؟ يقول برتراند رسل " :وطبيعي أن يلقى مذهب الشك رواجا عند كثير من العقول غير الفلسفية ,فقد رأى الناس اختلاف المدارس , وحدة ما قام بينهما من منازعات ,فقرروا لأنفسهم أن كل هذه المدارس سواء في ادعائها العلم بما

يستحيل العلم به ,فكان الشك عزاء الكسلان ,لأنه مذهب يبدي الجاهل ,في حكمة رجال العالم المشهورين بعلمهم .

الاختلافات السياسية ,بين التسلط الإمبراطوري والدعوات الديمقراطية ,فقد كان قبل مجيء السفسطائية أزمة حضارة يونانية متأرجحة ,ولهذا ,فقد شكلت المؤسسات الديمقراطية ضغطا كبيرا على لجوء فلاسفة السفسطائية على إبراز سفسطتهم ,فالبحث عن السلطة يستوجب تحكما جيدا في اللغة وفي البرهنة ,والأمر لم يعد متعلقا بالتنظيم والترتيب فحسب ,بل يتطلب كذلك الإقناع والتفسير ,ولذلك فإن السفسطائيين جميعهم من الطبقة الوسطى ويذكر برتراند رسل عن حال ذلك الزمان فيقول " :فقد كان ثمة صراع لا ينقطع بين الديمقراطيين والطغيان في معظم المدن اليونانية . " فلا يلبث حزب من هذين الحزبين أن ينكسر حتى يحكم على زعمائه بالإعدام ,أو النفي فورا ...

الاختلافات العلمية التي يتزعمها جملة من كبار الفلاسفة والتي تباينت في شرحها لمبدأ الكون ,إلى جانب نشأت الآراء العلموية في مظاهر الكون والرياضيات ,فأصبح الناس يعللون ظواهر الكون تعليلا طبيعيا دون أن يردوها إلى قوى الآلهة تلك الآراء العلمية التي تصادمت مع واقع الأساطير الدينية التي كان يعتنقها اليونان اتباعا لأحد الفلاسفة السابقين ,مثل زعم طاليس أن الماء هو العنصر الأول ,بينما أنكسيمانس يرى أنه الهواء ,وهيرقليطس يرى أنه النار وأمبادوقليس يرى أنها أربعة أشياء في الماء والهواء والتراب والنار .

تعرض القيم الأخلاقية إلى مزيد من النقد والتهجم ,وذلك بعد أن اختلطت أثينا بحضارات جديدة بعد هزيمتها للفرس في معركة ماراثون عام 499 ق م ضمن الحروب الميدية ,فاختلطت الحضارات وامتزجت الأفكار ,مع دعوى كل واحد منهم احتكار الحقيقة ,فانحلت القوانين والأخلاق ,واعتبارها قيود وأغلال وأصبح هاجس الشبان هي السعي وراء الشهوة والملذة وكسب المال وعمت الفوضى الفكرية ,تلك الموجة التي فتحت أعين الجماهير على الجدل والخطابة فكانوا يجتمعون على نقض المسلمات الجماهيرية والعقدية ,فانتقلوا بالفلسفة اليونانية من القضايا العامة كالوجود والطبيعة وانزلقوا بالفلسفة إلى الجانب الإنساني على مستواه الفردي وبرعوا في فن الجدال ,وإعطائه بعدا بلاغيا وترويض الفكر بغية خلق أجواء مناسبة لكل الموضوعات.

اختلافهم في نشأة القوانين الإنسانية ,فتساءلوا ,هل القوانين الإنسانية مفروضة بالطبيعة أم هل هي مفروضة بمواضعات ترجع إلى اتفاق الناس فيما بينهم ؟ فرأى بروتاغوراس أنها اتفاق بين الناس ورأى أن الإنسان هو الذي اخترع القوانين التي تنظم الحياة الأخلاقية والسياسية واخترع العلوم والصناعات التي يسيطر كا على الطبيعة ,إذن فهي تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ,وقد اشتهرت عبارته الشهيرة "الإنسان هو مقياس كل شيء ,فهو مقياس وجود ما يوجد من الأشياء ، ومقياس لا وجود ما لا يوجد منها "فخلص بروتاغوراس إلى أن أساس القوانين والشرائع هو اتفاق الناس ومواضعاتهم ,وهو ما يسمى لديهم بالنوموس .ولكن هذا لم يكن محل اتفاق بين السفسطائيين ,وسبب اختلافهم يعود إلى التفرقة بين الطبيعة والقانون فمن السفسطائيين من يرى أن القوانين ليست من موضوعات البشر ,ولكنها مستمدة من الطبيعة الانسانية ورغباتها وأهوائها ,وهو ما يسمى لديهم بالفيزيس ,فقوانين البشرية هي المعيار والحكم ,وأن القوة في النزوع والسيطرة وإشباع الرغبات وسياسة المدن ,فالزهد ضعف وفتور ,فلا بأس لديهم أن السياسي يتملق الناس ويسايرهم لتحقيق مصلحته ,ليأخذ بشعبة الى الحكمة والفضيلة والخير .والعدالة عندهم كما طرحها أفلاطون هي مصلحة الأقوى أو مايعرف بنظرية الحق للأقوى ,وهو رأي غورجياس وتلميذه قليقس . ومعظم السفسطائيين ,فالشريعة لدى السفسطائية ابتكار بشري